مقدمة الشرح

الحمد لله ربِّ العالمين كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة والنعمة المسداة سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله ومن تبعه واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعد...

فقد نبعت فكرة «شرح دلائل الإعجاز» منذ بضع سنين في أثناء حوارٍ مع طلاب البلاغة والنقد حول موضوع من موضوعات دلائل الإعجاز، وقد استنطقتهم عن المنهج الأنفع والأجدر بتوضيح فكر عبد القاهر، وكان بين أيديهم كتابي «منهج عبد القاهر وبلاغته في التقديم والتمثيل»، وكنت قد آثرت فيه إعادة صياغة فكر عبد القاهر بالأسلوب المبسوط الذي يُقرِّب الأفكار، ويستدل في أثناء ذلك ببعض عبارات عبد القاهر، على طريقة أستاذي الدكتور كامل الخولي -رحمه الله، وكما تلقيت في محاضراته، وقرأت في كتابه «صور من تطور البيان العربي».

وقد خلصت من حواري مع طلابي إلى أن كلَّ دراسة حديثة توضح فكر عبد القاهر هي لا ريب مفيدة، ولكن الأقرب إلى تحقيق الغاية التي ينشدها الطلاب هو الإبقاء على نص دلائل الإعجاز كاملاً، مع شرحه في هامش يوضح الغامض ويوجز المقصود من الكلام الذي يطول أو يتكرر، ومن هنا كانت حاجة الطلاب هي الدافعة أساسًا إلى هذا النهج من الشرح.

ولا أعلم أن شرحًا للدلائل ظهر حتى الآن على ذلك النحو الذي نحوته والنهج الذي نهجته، سوى أن هناك دراسات ومؤلفات سبقت تدور حول بلاغة عبد القاهر على أنحاء عدة، فمنها ما يضبط معاقدها ويجمع أشتاتها: في القديم مثل كتاب «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» للرازي، والذي كان حلقة وصل بين بلاغة عبد القاهر وبلاغة السكاكي، وحديثًا: مثل كتاب «عبد القاهر الجرجاني» للدكتور أحمد بدوي، و«بلاغة عبد القاهر» للدكتور أحمد

مطلوب، ومنها ما يلقي الأضواء الكاشفة والمحللة لكثير من الموضوعات في الدلائل والأسرار مثل كتاب «مدخل إلى كتابي عبد القاهر» للدكتور محمد أبي موسى، وكتاب «سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر» للدكتور جلال الذهبي، وكتب أخرى تتناول موضوعًا واحدًا أو أكثر في الدلائل والأسرار.

أما الشرح الذي يضع أمامك نص عبد القاهر، ويستقصي النظر فيه، فيشرح ما يحتاج منه إلى شرح، ويلخِّص ما يحتاج منه إلى تلخيص، فلا أعلم أن أحدًا سبق إليه[١] مع حاجة المكتبة العربية وطلاب العلم إليه.

والعجيب أن تلخيص الخطيب ومختصر السعد[٢] نالا من اهتمام علماء البلاغة ما لم ينله دلائل الإعجاز، والأعجب من هذا أن أقسام اللغة العربية وكلياتها في الجامعات العربية وغيرها قد آثرت بلاغة السكاكي وتلخيص الخطيب ومختصر السعد وشروحهما رغم أنها لا تحقق الثمرة المرجوة من الدرس البلاغي على المستوى الأدبي أو النقدي أو الإعجازي، فلا هي تنمي الملكة الأدبية، ولا تصقل الملكة النقدية، ولا تساعد على كشف خصائص الإعجاز القرآني على النحو الذي يمكن أن يحققه «دلائل الإعجاز»، وذلك يعود إلى انفصال بلاغة السكاكي والشروح عن الوظيفة الأساس والغاية التي كان يهدف عبد القاهر إليها، ولقد كان يهدف من كتابيه: الدلائل والأسرار إلى غايتين: الأولى: صقل الملكة الأسلوبية عن طريق العلم باللغة، والثانية: صقل الملكة النقدية عن طريق العلم بالشعر وطبقات الشعراء، وكيف نفاضل بين شعر وشعر، ونعرف الفروق ونعلل ونفصِّل، وهاتان غايتان عظيمتان لكنهما كانتا في الوقت ذاته وسيلتين لغاية أسمى، هي معرفة إعجاز كتاب الله، ولما انفصلت البلاغة في المفتاح والإيضاح والمطول عن تحقيق تلك الغايات أصبحت كالشجرة الرائعة التي لا تثمر وكالحسناء العقيم، لهذا صار لزامًا علينا أن نعود إلى بلاغة عبد القاهر التي أهمل المتأخرون

(١) حدثني صديقي وزميلي الدكتور علي العطار أنه في أثناء زيارة له إلى تونس لجمع معلومات عن الشيخ الطاهر بن عاشور أطلعه أهله على بعض تعليقات مخطوطة على «دلائل الإعجاز» هي كالشرح لبعض أفكار الدلائل، لكن هذه التعليقات لم تنشر؛ لأن الشيخ الطاهر رحل وتركها مسودات غير مكتملة ولم أتمكن من الاطلاع عليها..

(٢) تلخيص الخطيب كان لمفتاح السكاكي القسم الخاص بعلوم البلاغة، ومختصر السعد كان لكتابه «المطول»، وقد قامت حولهما شروح كثيرة جمعت وعرفت بـ«شروح التلخيص».

أهم ما فيها، وكانوا سببًا في زهد جمهرة المثقفين عنها، وصاروا ينظرون إليها على أنها بلاغة لفظية، وهذه من أعظم الفِرى؛ لأن بلاغة العرب التي عرفها الأوائل هي بلاغة الفكر واللسان معًا، وما كان حرص عبد القاهر على أن النظم نظم معانٍ وترتيب أفكار إلا من أجل هذا.

إنَّ بلاغة السكاكي والخطيب وأصحاب الشروح تقدم أبوابًا منظمةً تساعد على تحصيل معرفة بلاغية ولا غنى للمتخصصين عنها، لكنها لا تحقق الغايات الأساس التي نشأت البلاغة من أجلها، ولا تساعد بحال على تحريك العقول للاجتهاد والإبداع والاستنباط، ولا تساعد على تحريك الملكة النقدية نحو التذوق والتحليل والموازنة، وذلك على النحو الذي تؤدي إليه قراءة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة قراءة واعية.

ولله در الشيخ محمد عبده الذي هداه ذوقه إلى كل هذا، فطفق يقلِّب في خزائن الكتب حتى عثر على ضالته في «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، فاستخرجهما من بين مخطوطات مكتبة الجامع الأزهر، ونفض عنهما غبار السنين الطويلة، وشرع في تحقيقهما وتدريسهما لطلابه، ولكن طلاب اليوم غير طلاب الأمس، وكثير من أفكار عبد القاهر من العمق بحيث تحتاج إلى التقريب والشرح، وكثير من كلامه يحتاج من جهة أخرى إلى تحصيل وتخليص، وكثير من شواهده تحتاج إلى فهم وتذوق وتحليل.

ومن هنا كان التفكير في شرح دلائل الإعجاز، ومع أن غير قليل من المؤلفات ظهرت في هذا العصر، وهي تدور حول بلاغة عبد القاهر على أنحاء عدة كما سبق، فإن هذه المؤلفات على قيمتها لا تلتحم بنصوص عبد القاهر التحامًا مباشرًا، ولا تستقصي النظر في أفكاره، وفي بعضها توسع يذهب بعيدًا عن بلاغة الإمام مع حاجة طلاب العلم إلى ذلك الالتحام المباشر بين النص وشرحه.

منهج الشرح:

آثرت في هذا الشرح اتباع الخطوات التالية:

١- توضيح المجمل أو المبهم من نص «دلائل الإعجاز».

٢- تلخيص ما طالت عبارته طولاً يحتاج إلى بلورة وتقريب، والتلخيص عندما يُقصد

بـه تقريـب المعنـى يكـون ضربًـا مـن البيـان والشرح، وقـد ورد في «القـاموس» مـن معـاني التلخيص: «الشرح والتبيين والتخليص» [راجع: مادة «لخص»].

٣- شرح معاني الأبيات بما يلقي الضوء الكاشف على مقصود عبد القاهر، مع التنبيه إلى مواطن الحسن ما أمكن؛ ليكون إسهامًا في تنمية الحس الذوقي عند طلاب البلاغة والأدب والنقد، وكذا فيما يتعلق بالآيات الكريمة، والعودة للتفاسير إذا اقتضى الأمر، مع التأكيد على النسبة التي سبق إليها محققو «دلائل الإعجاز».

٤- وضع عناوين جانبية بين قوسين مركنين لتنبيه إلى مضمون ما تحتها.

٥- ذكر آراء العلماء في بعض المسائل التي تعددت فيها الآراء عندما يقتضي الأمر ذلك، فلم يكن تعديد الآراء منهجًا أو غايةً، ولكنه مجرد وسيلة في حدود ما يحقق الهدف من الشرح والبيان.

٦- الرجوع أحيانًا للمصادر التي استقى منها عبد القاهر في القضايا التي أثارت جدلاً واسعًا، وذلك للتيقن من نصوص السابقين، ولقد ثبت أن بعض العبارات التي استوقفت عبد القاهر نُقِلَتْ إليه محرَّفة، ولو نقلت إليه كما هي لما أثارت ذلك الجدل، وذلك مثل عبارة القاضي عبد الجبار التي نُقِلَتْ إلى عبد القاهر وسجلها بهذه الصيغة: «إنَّ المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ»، وعقَّب عليها قائلاً: «فأطلقوا كما ترى كلامًا يوهم كل مَن يسمعه أن المزية في حاق اللفظ»[(١)].

وهذا يعني أن الخطأ خطأ عبارة بحيث يؤدي إلى إيهام غير المقصود منها، وقد وردت عبارة القاضي عبد الجبار نفسها مرة ثانية في «دلائل الإعجاز» ص(٣٩٥)، وعقَّب عبد القاهر عليها بما يدل على إمكان تصحيح المقصود منها وتوجيهه نحو المزايا التي تحدث في نظم المعاني لا الألفاظ، فهذا التعقيب وذاك يشير إلى الرغبة في تخفيف المواجهة الجدلية، وقد عدتُ إلى نص كلام القاضي مستعينًا بإحالة الشيخ شاكر في تعليقه، وقد ورد فيها أن نص «المغني» في الجزء السادس عشر ص(١٩٩) تحت عنوان: «فصل في الوجه الذي له يقع التفاضل في فصاحة الكلام» هو: «على أنا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ التي يُعبّر بها عنها كما ذكرنا» [راجع: «المغني»،

(١) «دلائل الإعجاز» تعليق: محمود شاكر، ص(٦٣).

(١٦/ ١٩٩)، و«دلائل الإعجاز» ص(٦٣)].

والفرق كبير بين العبارة كما وردت في «دلائل الإعجاز»: «وإنما تتزايد الألفاظ»، وكما جاءت في نص «المغني»: «الذي يعتبر: التزايد عند الألفاظ التي يُعبّر بها عنها»، فتزايد الألفاظ غير التزايد عند الألفاظ، عبارة «المغني» هذه تعني أن المعاني لا تتزايد من نفسها، ولكن عند الألفاظ أي عند الألفاظ التي يُعبّر بها عن تلك المعاني؛ فهل هناك فرق بين مراد عبارة عبد الجبار تلك وبين ما يريده عبد القاهر، سوى أن عبارة عبد الجبار نُقلت محرَّفة.

٧- تغليب النزعة النقدية التي تستوقف نص عبد القاهر وتناقشه أحيانًا وهي نزعة متأثرة باتجاه عبد القاهر نفسه الذي كان يستوقف سابقيه ويناقشهم، وكل عمل بشرى قابل للمنافسة وإبداء الرأي المتجرد المخلص.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينتفع طلاب العربية بهذا الشرح، وأن يحتجَّ لي ما كان فيه من جهد مخلص عما فاتني من قصور لا مفر منه، وأن يكون ما فيه من نفع ظلاً لي في يوم الحرِّ الطويل.

المؤلف: محمد إبراهيم شادي

الحجون بجوار مقابر المعلاة

في منتصف شهر رجب (١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م)

openkandl.com